مقدمة

لطالما أعجبت بحقبتين من التاريخ أكثر من الحقب الأخرى كلّها:

الأولى: هي عصر التنوير في أوروبا؛ وذلك يرجع بشكل كبير إلى الأدِيبات الكثيرات اللامعات اللاتي ظهرن آنذاك.

أما **الحقبة الثانية** فهي حقبة الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، إنّها حقبة السعي الدؤوب نحو النقاء والجمال في الفنون المختلفة؛ فكان من الطبيعي لِزامًا أن تؤثر فيّ بشكل خاص ''رسائل السفارة للسيدة مونتاجيو'' عندما قرأتها أوَّل مرة.

كانت السيدة ماري مونتاجيو (١٦٨٩-١٧٦٢م) امرأة استثنائية؛ فهي إحدى السيدات المذهلات الكثيرات اللاتي لمعْنَ كالنجوم الساطعة في ثريا أوروبا التنوير خلال القرن الثامن عشر، استطاعت أن تصنع لنفسها اسمًا من خلال أسلوبها المثير في كتابة الرسائل، وغدا أسلوبها مرآة لذكائها الاستثنائيّ ومعرفتها الواسعة، تألّق ذكاؤها الحاد في تعليقاتها الخاصة بالحياة اليومية التي ضمنتها رسائل عدّة كتبتها من الخارج لأسرتها وأصدقائها، وكذلك سطع اسمها أدبيًّا من خلال أحداث زواجها المضطرب، وشجاعتها في مواجهة مرض الجُدَري، وعلاقتها الصعبة بأبنائها، ورحلاتها الكثيرة، ومناداتها الصريحة بمبادئ المساواة بين الجنسين، وأنشطتها السياسية وغربتها عن إنجلترا التي فرضتها على نفسها، وأسلوب حياتها الطليق في أعوامها الأخيرة، كلُّ ذلك موثَّق في مئات الرسائل التي وصلت إلينا.

ولدت السيدة مونتاجيو -وسُمِّيَت ماري بيربونت- عام ١٦٨٩م في نوتنجهامشير بإنجلترا في غرفة من مجموعة غرف يبلغ عددها "٢٢٤" غرفة بمنزل أبيها الفخم الذي بني على طراز القرن الثامن عشر، ويحمل اسم ثورسبي هول، وقد تلقت تعليمًا متميزًا؛ وكانت طفلة محظوظة فهي ابنة دوق كينجستون.

برز ذكاؤها الفطري في سنٍّ مبكرة جدًا فقيل: إنها تعلمت اللغة اللاتينية قبل سنّ الثامنة، قابلَتْ السيد ورتلي مونتاجيو المحامي والسياسي البارز وهي لا تزال في سنّ المراهقة، وتحابّ الاثنان خلال فترة مغازلة امتدت أكثر من سبع سنوات، وعندما تقدم لخِطبتها رفضه والدها دوق كينجستون؛ إذ رآه لا يتمتع بالاستقرار الماديّ الكافي من وجهة نظره، ووجد لها شخصًا ثريًا على ذوقه، إلا أنها وجدته غليظ الطبع، وفي لفتة أولية تنم عن استقلالها المذهل الذي غدا سمة أساسيّة في حياتها؛ تحدت والدها، ورتبت لأن يختطفها مونتاجيو في طريقها للزفاف؛ وهرب الاثنان وتزوجا في عام ١٧١٢م.

غير أنّ الأحداث التي تلت هذه القصة الخيالية لم تحقق أحلام خيالها الطموح؛ فتبيّن لها أن الحياة الزوجية صعبة، وها هي رسائلها تقدم الكثير والكثير من اكتشافاتها التأملية التي تعبر عن تزايد تحررها من الوهم، ولكي تنفس عن هذه التعاسة؛ شرعت في بناء نفسها أديبة من خلال كتابة المقالات الأدبية والنقدية.

وعندما انتقل الزوجان إلى لندن باتت ماري محبوبة لدى مجتمع لندن الراقي الذي قدّر ما تتمتع به من توليفة الجمال الأخاذ والذكاء المتقد والكتابة المتميزة؛ وشعرت ماري في تلك الفترة بالسعادة النسبية رغم مشكلاتها الزوجية المستمرة؛ ووُلد ابنها إدوارد بعد سنة من الزواج.

وفي العام التالي (١٧١٦م) سافرت عائلة مونتاجيو إلى تركيا، حيث عُين السيد ورتلي مونتاجيو سفيرًا؛ وكانت مهمته التفاوض من أجل السلام بين العثمانيين والنمساويين، وحماية المصالح البريطانية التجارية والبحرية في بلاد الشام.

في ذلك الوقت كانت السيدة ماري في السابعة والعشرين من عمرها، وولدت طفلتها ماري في تركيا في يناير/كانون الثاني عام ١٧١٨م، وخلال إقامتها بتركيا -وهي ثلاثة عشر شهرًا- أرسلت خمسًا وعشرين رسالةً إلى أصدقائها وأهلها في موطنها، وقد عُرفت تلك الرسائل-التي نُشرت بعد وفاتها- باسم ''رسائل السفارة''.

وهكذا تلاقت قصتي وقصتها...

***

وأودّ أن أعبر عن خالص شكري للشاعر محسن إلياس صوباشي لتشجيعه ودعمه المستمر لجهدي في الكتابة والبحث، كما أود أن أعبر عن خالص حبي لزوجي ستيفن إيب جوتليب؛ فما يقدمه لي من حنان وتفاهم دائبين في كل ما أفعل هو ما يجعله أحب الناس قاطبة إليَّ، كما أشكر بالطبع شعب جمهورية تركيا، نعم سأتحدّث عن معالِم تركيّا إلا أن حبي لشعبها هو السبب الرئيس وراء وقوعي في عشق هذا البلد الرائع.

كاثرين برانج

obeikandl.com